Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تعريف بالكتاب

يرى النقاد المسرحيون أن رواية الانسان والسوبرمان ـ أو الانسان والانسان الاسمى ـ هى لباب فلسفة برنارد شـــو وان لم تكن أعظم رواياته ولا أجودها من الناحية الفنية ، وزبدتها أن النـوع الانسانى يعتمد فى الاحتفاظ ببقائه وتدبير وسائل ارتقائه على قوتين : أحداهما قوة الغرائز النوعية والأخرى قوة المثل العليا ، وان الجنسين يتسابقان فى القيام بهذه الرسالة الأبدية . فالمرأة هى الأمينة على قوة الغريزة ، والرجل هو الأمين على قوة المثل العليا ، ولكن الغريزة تغلب المثـــل العليا كلما اتفق الاشتباك بينهما فى المعيشة اليومية . لأن ميدان المثل الأعلى بعيـد الغـاية لا يتم تحقيق غاياته ولو بعد الوف الألوف من السنين ، ولكن ميدان الغريزة يدور على الصراع المتجدد خطوة بعـد خطوة ، ويوما بعـد يوم ، ويقوم فيـه الانسان الواحد بدور يبتدىء وينتهى قبل نهاية عمره ، فاذا صمدت فيه المرأة لأداء أمانتها بلغت منها الغـاية قبل أن ينتهى الرجل بأمتلتـه العليا الى الخطوة القريبة على طريقها الأبدى الطويل .

ولكل من الغريزة والمثل الأعلى قوة من العواطف والأهواء والخواطر والعقـــائد تنصره وتصـحبه فى طريقه ، وكل قصة غرام بين امرأة «نموذجية» ورجل نموذجى فهى معركة حامية بين جميع هذه العواطف والأهواء والخواطر والمعتقدات .

والرواية معرض لمعارك كثيرة تتصل أو تنفصل ، بين منظر ومنظر وبين فصل وفصل حيثما اتفق لها مجال للظهور والعمل ، فليس للرواية انتظام الوحـــدة المسرحية على النمط اليونانى القديم ولا على النمط

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأوربى الحديث ، ولهذا تأتى للمخرجين المسرحيين أن ينتزعوا فصلها الثالث باسم « دون جـــوان فى الجحيم » ليمثلوه فى ليلة واحدة على انفراد ، كما جاء فى الحوار التالى بين بيترسون وبريزون ، ولم يشعر النظارة باقتضاب المناظر والمواقف ، الا من كان على علم بترتيب فصولها وهى مطبوعة للقراءة ، أو للتمثيل على عدة أيام .

ولا يلقى القارىء نظرة على الرواية حتى يتبين له أن بطلها وبطلتها هما النوع الانسانى بحياته الباقية المحيطة بأعمار أفراد الرجال وأفراد النساء ، فليس البطل « تانر » رجلا كعـــامة الرجال وليست البطلة « آن » امرأة كعامة النساء ، ولكنهما « نوع » انسانى يحشد قواه جميعا كما عملت وتعمل على مسرح الأرض والسماء أو على مسرح الطبيعـــة الخالدة ، وليس تانر وآن هنا غير لسانين ينطقان بما تقوله قوى الغريزة واضحة وغامضة ، وبما تقوله قوى المثل العليا حاضرة وغائبة وقريبة وبعيدة وعبارتهما من أجل ذلك موافقة لأسلوب الفخـامة والضخامة وأسلوب الهول والخيلاء التى تناسب المقام .

أما آراء « برنارد شو » فى معـارك الجنسين لاتمام وظائف الزواج اليومى فهى أبسط من ذلك بكثير ، وهى أقرب الى التواضع والقناعة من كل هذه الطنطنة والتهويل ، والفرق بين الأسلوبين هو كالفرق بين صفقة الخلود للمساومة على ملك الأرض وبين صفقة الخبز والخضر من صباح الى صباح أو من أسبوع الى أسبوع .

فبرنارد شو وهـــو يتكلم بلسان الســيد تانر والسيدة آن غير برنارد شو الذى يقول فى مقدمته لطلب الزواج : « اننى أرجو أن أوصى بما يلى : اجعلوا الطلاق مساويا للزواج فى السهولة والرخص والعلاقة الشخصية ، واقبلوا طلب الطـــلاق من الرجل والمرأة وان لم يرض الطرف الآخر ، ولا حاجة بعـــد الطلب الى ذكر الأسباب .. واجعلوا الطلاق لسوء السلوك من حق الدولة يمثلها مدعى النيابة العموميـــة أو موظف مثله » الخ الخ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فان الزواج هنا « عملية مأذون شرعى وطرفين » ولكنه فى رواية الانسان والانسان الأسمى « عملية الكون والطبيعة » ثم هو صفقة آدم وحواء من بدء الخليقة الى نهاية الشوط المقدور .

ولا بد من التمييز الفاصل بين برنارد شو وهو يتكلم بلسان أبطال من طراز تانر وآن ، وبرنارد شو وهو يتكلم بألسنة الأبطال والبطلات على مسرح المعيشة اليومية .

لابد من التفرقة بين المصلح الانسانى والمصلح الاجتماعى على مذهب من مذاهب الاقتصاد أو السياسة أو الدعوات الحزبية .

فالمصلح على مذهب من هذه المذاهب يكفيه أن يعمل بالأدوات الاقتصادية جيلا بعد جيل بل عاما بعد عام فى كثير من الأحوال .

أما المصلح الانسانى فلا تكفيه أداة أقل من الطبيعة بحذافيرها ومن الزمن المتطاول بغير ابتداء والى غير انتهاء .

برنارد شو الأول تكفيه القوة التى يسميها بالعناية السياسية Political Providence ولا تزيد مساحتها على مساحة النظم الحكومية الى غاية امتدادها .

أما برنارد شو الثانى فلا تكفيه قوة أقل من مجموعة القوى المسيطرة على حياة الانسان وسائر الأحياء ، وهى التى يسميها بدفعة الحياة أو قوة الحياة Life force ويشرحها على السنة الأبطال المتحاورين فى رواية الانسان والانسان الأسمى ، ثم يشرحها بما هو أصرح من ذلك وأوسع تفصيلا فى مذكرات متفرقة ألحقها بالرواية وقال أنها هى خلاصة فلسفة البطل تانر أو خلاصة وحى الثورة الكبرى تحتويها فقرات وفصول بعنوان «دفتر الثورى» Revolutionary Handbook

فالقيم الاقتصادية عند برنارد شو المصلح الانسانى هى أسماء وألفاظ يتشابه منها القديم والحديث ان لم تصحبها أطوار الحياة التى تندفع من الأعماق وتتناول الطبيعة نفسها بالتعديل والتبديل والترقية والتهذيب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال من مقـــدمته لدفتر الثورى : « ان مجرد التحول فى النظم والمراسم كتحول الحكومة من عسكرية كهنوتية الى سيطرة تجارية علميـــة ، أو تحولها من ديمقراطية التجار الى ديمقراطية الأجزاء ، أو تحولها من نظام الرق الى نظام التسخير ، أو من التسخير الى رأس المال ، أو من الملكية الى الجمهورية ، أو من الايمان بالأرباب الى التوحيد أو من التوحيد الى الانكار ، أو من الانكار الى ديانة الانسانية ووحدة الوجود ، أو من الأمية العامة الى القراءة العامة ، أو من الخيالية الى الواقعية ومن الواقعية الى الصوفية ، أو مما وراء الطبيعة الى الطبيعة انما هى كلها تحولات من قبيل التحول بين تويدلدم وتويدلدى ... وتغيير فى تغيير انما هو تغييرنا شـــبيها بشبيه ... أما التحول من التفاحة المرة الى تفاحة البزرة ، ومن الذئب والنعلب الى كلب الدار ، ومن فرس هنرى الخامس الى حصان البحر أو حصان السباق ـ فهو شىء صحيح وهـــو تحول يتولى الانســـان فيه الخلق ويخضع الطبيعة لمقاصده ثم يشرفها ويدنسها على حسب هذه المقاصد ، فيصح أن يعرض للانسان من التغيير ما يعرض للذئب وسائر الحيوان ومتى كان النموذجان نموذج الصـــعلوك المتشرد ونموذج الجنتلمان وليدين لجشع الانسان وحماقته فما الذى يكثر علينا أن نرجوه من تطلعه الى المثل الكونية العليا ؟ .. »

فالمصلح الانسانى هنـــا يتكلم فيسكت الصيحة التى ينطلق بها داعيـــة المذهب وسمسار المراسم والأوضاع ، وهو فى آماله الواسعة وراء حدود المذاهب والأزمنة أشد ايمانا بالقيم الباقية من أن تحصره قيم التجـــارة وقيم الأجور ورؤوس الأموال . وقد كان برنارد شو اشتراكيا على منهج الفابيين تارة وعلى منهج الاشتراكية الديمقراطية تارة أخرى ، ولكنه كان يحفظ للاشتراكية حدودها فى نطاق المعيشة اليومية ونطاق الأنظمة والدساتير ، فاذا نظر الى النطاق الواسع الشاسع البعيد المدى وراء هذه الأنظمة والدساتير قاطبة فهو هنالك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الانسان الأبدى أو النوع الانسانى الكامل ، وغايته المحسوبة هى الغاية التى تقاس بعمر النوع كله وراء عمر الزوج والزوجة ووراء عمر الأجير وصاحب المال ، ووراء عمر الدولة والحكومة بمختلف الأوضاع والأشكال .

وليس بالمستغرب على الناظر الى هذا الأفق الواسع الشاسع أن ينزه دعوته عن لدد الكراهية التى تشوب دعوات الخصوم فى حرب الأوضاع والأشكال ، لأن الاختلاف بينها أهون من أن « تتعادى النفوس فيه وتتفانى » على رأى شاعرنا الحكيم أبى الطيب ، ولأن الغاية المرموقة أبعد أمدا وأبقى أثرا من أن نتعجلها بالخلاف السريع وهى على تلك المرحلة المتطاولة بعد آماد وآباد .

وان أسلوب الفكاهة الرضية لأوفق الأساليب لهذا المنهج من مناهج الاصلاح ، وهذه الدعوة من دعوات التهذيب فى الطبيعة والحياة ، فليس أسلوب « الهجاء الاجتماعى » الساخر عند برنارد شو مسألة اختيار وذوق أو مسألة كتابة وأدب ، ولكنه قبل ذلك مزاج نفس وطبيعة تفكير ، وليست طبيعة هذا التفكير بحاجة الى اللدد والكراهية ولا هى بالرسالة التى تحتمل عداوة الانسان للانسان ، لأن النوع الانسانى بحذافيره مشترك « متضامن » فى خيره وشره وفى جهده وتقصيره وفى معذرته وملامه ، وليس الفارق بين تويدلدم وتويدلدى بالفارق الذى يسيل من أجله الدم وتتقطع العروق والأوصال ، فانما هو معركة كمعركة الانسان الأسمى والحياة الأبدية فى هذه الرواية ، لا يدرى أبطالها أنفسهم أين تنتهى فيها القطيعة والمناجزة وأين يبتدىء اللقاء والوفاق .

عباس محمود العقاد